الخطيب ...

لأنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسي

« كتب هذه القصة للمتعة أنطون تشيكوف أمير القصصيين في روسيا ، منذ حوالي نصف قرن ... ويسرنا أن نقدمها إلى قراء الرسالة مثالا للحياة الاجتماعية في ذلك العهد المظلم ... ولعل تلك القصة من القلائل التي أجاد فيها قلم تشيكوف الفكاهي في أسلوب ممتع ومعنى طريف ، يتخللها نقد صريح للتقاليد والعادات التي كانت تنل الناس في ذلك الحين ... »

مصطفى

... في صبيحة يوم مشرق كان « كيريل ايفانفتش بيلونوف » كاتب الجامعة على وشك أن يُدفن ، وهو رجل مات متأثراً بالآفتين الشائعتين في بلادنا : زوجة سيئة الخلق ، وإدمان للخمر

وبينما كان موكب الجنازة يجتاز الطريق إلى المقبرة قفز أحد رفقاء المرحوم ويدعى « بيلافسكي » إلى عربة ، وراح يركض بها منقباً عن « جرجوري بتروفتش زبوكين » ، وهو رجل — مع حداثته — يتمتع بهيبة ومحبة من معارفه ، ويحيط بقسط وافر من العلم — كمعظم قرائي — وقد خلع الله عليه موهبة نادرة في ارتجال الأحاديث التي ينطلق لسانه بها في الأعراس والأعياد والجنازات ، وفي قدرته أن يتحدث كيفما وحيثما يشاء ... في نومه ، في خواء معدته ، عند ما ينتشي لكثرة ما نهل من الخمر ، عندما تعتريه الحمى فتسيل الألفاظ من فمه في سلاسة ولطف كما تنساب المياه في الجداول ، ويعج قاموسه الخطابي بكلمات لا تدانيها « صراصير » المطاعم في الغزارة والوفرة . أما أسلوبه فصحيح بليغ يفيض بالإطناب والإسهاب ، ولقد يلجأ القوم — في بعض أعراس التجار — إلى الاستعانة بالشرطة لإيقاف ذلك السيل المتدفق ...

وابتدره بيلافسكي حينما عثر عليه في داره قائلا : « لقد أتيت في طلبك — أيها العجوز — هيا ارتد قبعتك وسترتك على عجل واصحبني ... فقد مات أحد رفقائنا ونحن على وشك أن نشيعه إلى الآخرة ، ولذا وجب عليك أن تودعه بكلمة من كلماتك الرائعة فأنت أملنا الوحيد ، ولولا أن ذلك الفقيد له مقام في المجتمع ويستحق ما يقال في تأبينه لما أتعبناك وأزعجناك ، ولكنك تعلم أنه كاتب الجامعة وناموسها والدعامة الراسخة التي كانت تعتمد عليها الإدارة ، فينبغي أن نشيعه ولو بحديث لائق ... » فقال زبوكين بغير اكتراث : « هه ... كاتب الجامعة ! أتعنى ذلك الرجل السكير ؟ ! »

— « نعم . سيكون ثمت فطائر وغذاء ، وستنال أجرة العربة ... هيا ، عجّل يا عزيزي ، يكفيك أن تلقي ببعض الألفاظ الحزينة عند القبر كما كان يفعل سيكرو العظيم ... آه كم ستحوز من الشكر والثناء ! »

فوافق « زبوكين على الفور وراح يعبث بغدائر شعره وجعل على سحنته مسحة كآبة وحزن ، وانطلق في الطريق بصحبة « بيلافسكي » ، وقال وهو يهم بركوب العربة : « إني أعلم من هو كاتبكم هذا ... رجل شرير خبيث ، وحش لم أصادف نظيره في حياتي ... فليكن الله في عونه » .

— « آه ... « جريشيا » هيا معنا فليس من العدل أن نسيء إلى رجل ودع الحياة » .

— « لا مجال للشك في ذلك : « فما يُذكر للميت سوى حسناته » ولو كان شريراً ... » .

وأدرك الرفاق الثلاثة موكب الجنازة ، وراحوا يسيرون معه . أما النعش فكان يتقدم وئيداً وعلى مهل حتى أنهم استطاعوا — قبل وصولهم إلى المقبرة — أن ينسلوا ثلاث مرات إلى حانة خمر وينهلوا بعض الأقداح « نخب » حياة الراحل « الكريم » .

وفي المقبرة راح الجميع يصلون إلى جانب اللحد ... أما حماته وزوجته وأختها فأخذن يذرفن الدمع — مراعاة للتقاليد والعادات — وعندما واروا النعش في التراب صرخت الزوجة في لوعة وأسى « دعوني أرحل معه » ولكنها لم تصحب زوجها إلى القبر فقد تذكرت ما ستنال من معاش الفقيد ...

ولبث « زبوكين » حتى خيّم الصمت على الجميع ... فخطا إلى الأمام ... وراح يقلب طرفه في الحاضرين ... وبدأ يقول :

« أالصدق ما تراه مقلتاى ، وما تسمعه أذناى ؟.. لا . إنّ هذا إلا أضغاث حلم مزعج ... هذا القبر ، هذا الدمع الذى يتألق على الوجنات ... هذه الأنات وهذه الزفرات ... أهذا كله وهم ؟ لا وا أسفاه ما هذا بحلم ... إنما هى الحقيقة وأعيننا لا تخدعنا ... لقد قضى نحبه من كان بيننا منذ لحظات ، من كان أمام أعيننا كالنحلة الدؤوب ... لا يقرّ قرارها حتى تخرج العسل شهياً لصالح الخلية الاجتماعية ... لقد ارتد الآن إلى التراب ... إلى التراب الخداع ؛ لقد اختطفته يد المنون القاسية الجبارة فى لحظة كان يفيض فيها — مع تقدمه فى العمر — بالحياة والقوة والطموح . إنها لعمرى خسارة لا تعوض ... ترى من سيخلفه فى منصبه ، لا شك أن فى حوزتنا من هو كفء لها ، ولكن « بروكوفى اسبتسن » معدوم النظير ... لقد كان منصرفاً إلى تأدية واجبه بما وسع مقدوره ... لم يضنّ بقوته بل كان يجهد نفسه فى العمل إلى لحظات متأخرة من الليل ... كان مثالا عالياً للقلب الطيب والضمير النزه عن الرشوة ، كم كان يحتقر أولئك الذين يأكلون مال الناس بالحق وبالباطل ... لا يفتأون يحللون له الضلال ليحيدوا به عن السبيل السوىّ ... نعم أمام أبصارنا « بروكوفى اسبتسن » الذى يجود براتبه لإخوانه التعساء ... كم ستطرق آذاننا تلك الأنات التى تطلقها الأرامل واليتامى بعد أن قضى نحبه من كان يحسن إليهم ، من كان منصرفاً إلى أعمال البر وإلى تأدية واجبه ... من كان عزوفاً عن ملذات الحياة وبهجتها ... من نبذ سعادة هذا المجتمع ... بل نبذ الزواج وجانب النساء إلى آخر أيامه ... مَن ذلك الذى فى قدرته أن يخلفه كرفيق جُبِلْنا على حبه ... وكأنى أنظر إلى وجهه الحليق تعلوه الرجة يلتفت إلينا وعلى ثغره ابتسامة مشرقة ... وكأنى أنصت إلى صوته الحنون الشفيق . أسأل الله أن يشملك برحمته يا بروكوفى أسبتسن فقد كنت شريفاً أميناً مع ما فى ذلك من عناء ... » .

وواصل زبوكين حديثه ... بينما شاع الهمس بين المنصتين ، لقد أرضى حديثه الجميع . بل وجعل بعض الدموع تنهمر من المآقى ... ولكن بدت معظم الفقرات الخطابية غريبة ؛ فأولا : لم يدركوا السبب الذى دعا الخطيب من أجله الفقيد باسم « بروكوفى اسبتسن » مع أن اسمه « كيريل ايفنفتسن » . ثانياً : أن الجميع يعلم ما كان ينشب بين الراحل وزوجته من الشجار . فمن المؤكد إذن أنه لم يكن أعزب كما نعته « الخطيب » . ثالثا : كان ذا لحية كثة حمراء وهذا يتنافى مع قول الخطيب من أنه كان « حليق الوجه » . ولهذا أعجز الجميع فهم معظم أقوال الخطيب ... وعلا وجوههم الوجوم ، وبهتوا وأخذ يتلفت بعضهم إلى البعض ، بينما راح فريق منهم يهزّ أكتافه فى ملل وضجر .

واستمر الخطيب فى خطبته — وقد اتخذ فى وقفته هيئة الحزين . فقال : « بروكوفى اسبتسن ... لقد كان وجهك وضاحا مع أنه قبيح ... كنت عبوساً مقطب الجبين ، ولكن كلنا يدرك أن تحت هذا المظهر الخارجى قلباً يغلب عليه الشرف والشفقة والحنان ... » . وفجأة لحظ المستمعون أن الخطيب نفسه بدأ يعتريه شىء من الاستغراب كان يتفرّس فى جهة معينة من الجمع الغفير . ولم يلبث أن كفّ عن الحديث وفغر فاه فى دهشة ... ثم مال على صديقه بيلافسكى وقال وهو يحملق فى فزع « هه . لقد رأيته ... إنه ما زال على قيد الحياة ؟ ! » .

— « من هو الذى لا زال على قيد الحياة ؟ ! » .

— « بروكوفى اسبتسن !! ها هو قائم عند حجارة القبر !! »

— « إنه لا زال على قيد الحياة ... إنما الذى مات كيريل ايفانفتسن أما بروكوفى اسبتسن فقد كان كاتب الجامعة منذ حين وقد نُقِل إلى المنطقة الثانية رئيساً للمكتبة ... » .

— « يا للشيطان الذى أوحى إلى بذلك ! » .

— « لِمَ وقفت عن الحديث ... انطلق عجباً ! ! إنك مضطرب » . والتفت زبوكين إلى القبر ، وفى فصاحته المعهودة تابع خديثه . أما بروكوفى اسبتسن كبير الكتبة الكهل ذو الوجه الحليق فقد كان قائماً حقاً قرب حجارة القبر ... كان ينظر إلى الخطيب شزراً ... وقد انتابته موجة من الغضب .

أخذ رفقاء زبوكين يتنامزون عليه فى عودتهم « هه .. هه ... يا لك من غر ! عجباً ! أتود أن تدفن رجلا وهو يفيض بالحياة ؟ » ودنا منه بروكوفى اسبتسن وراح يقول فى تذمر هذا لا يليق أيها الشاب ، إن حديثك هنا له قيمته إن كان رجل قد ودع الحياة ، أما إذا كان يمت إلى رجل حى فهو كلا فارغ وتهكم واستهزاء ... كم تحدثت طويلا عن روحى وعن نفسى ! أيها الأبله ! ماذا كنت تقول ؟ ! مثالا عالياً للقلب الطيب والضمير النزه عن الرشوة .. إنها كلمات تقال للأحياء على سبيل التهكم ، ومع ذلك من الذى دعاك إلى التحدث بإطناب عن وجهى ؟ ! قبيح عبوس ، ولنفرض أنه كذلك ، ما الذى عليك أيها الأبله من وصف محياى على ذلك الملأ ... إنها وإهانة لن أغفرها لك

مصطفى جميل مرسى

وزارة المعارف العمومية

إدارة التوريدات

المناقصات العامة

إعلان مناقصة

تقدم العطاءات بعنوان حضرة صاحب العزة وكيل المعارف الساعد بشارع الفلكى بمصر بالبريد الموصى عليه أو بوضعها باليد بعرفة مقدميها فى داخل الصندوق المخصص لذلك فى إدارة المحفوظات بالوزارة لغاية الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٩/٩/٩٤٥ عن توريد أدوات ألعاب رياضية لازمة لمدارس البنين والبنات لسنة ٤٥ و١٩٤٦

ويمكن الحصول على شروط وثائمة المناقصة المذكورة من إدارة التوريدات بشارع الفلكى بمصر نظير دفع مبلغ ١٠٠ مليم ٣٩٢٣

افتتاح الموسم الجديد — سينما ستوديو مصر

يوم الاثنين ١٣ أغسطس

ستوديو مصر يقدم

عبقرية راتب أنور ومحاسن فى قصة الشباب

الحيـــاة كفاح

مع

سليمان نجيب — علوية جميل — زكى رستم

إخراج كمال مدكور

إعلان بيع

فى يوم الأحد ٢ سبتمبر سنة ١٩٤٥ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بادمو مركز ومديرية المنيا وفى يوم الثلاثاء ٤ سبتمبر سنة ١٩٤٥ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بسوق دمشير سيباع بالمزاد البلنى زراعة ٢٧ ط و٤٤ ف ذرة صينى المحجوزة تحفظيا بتاريخ ١٥ / ٨ / ١٩٤٤ و٥٦ ف قمح وفدان شعير و٢ ف حلبة وفول و٨ ف ربيع و٤ ف ربيع المحجوزة تحفظيا بتاريخ ١٩ / ٤ / ٩٤٤ و٣٠ ف قمح و١٠ ف فول و١٠ ف حلبة المحجوزة تنفيذيا بتاريخ ١٨ / ٣ سنة ١٩٤٥ وعدد ١٠ أرادب فول وحمارة وكوب وبقرة صفراء ودكتين خشب عادة وعدد ١ جرن قمح مدروس محصول ٣٠ ف ثلاثين ملك أحمد عبد الله عبد الله القيم بناحية أبو مركز ومديرية المنيا

نفاذا للحكم الصادر من محكمة مصر فى القضية ن ٧٥٢٧ سنة ١٩٤٤ كلى وفاء لمبلغ ١٢١٠ ج و١٦١ مليم من المحكوم به والمصاريف

وهذا البيع كطلب حضرة صاحب العزة الأستاذ عبد القادر بك فؤاد المناسترلى ناظر وقف المرحوم حسن باشا فؤاد المناسترلى ومحله المختار مكتب إدارة الوقف رقم ٤٦ بشارع القصر العينى بمصر ومكتب حضرة الأستاذ أحمد مختار حسين المحامى بشارع عبد العزيز ن ١٥ بمصر

فعلى راغب الشراء الحضور فى الزمان والمكان الموضحين بمالية

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

نشر الاعلانات فى الرسائل البرقية

إن الاعلان فى الرسائل البرقية المتداولة بين سكان القطر المصرى باجمعه هو دعاية عامة واسعة النطاق قد هيأتها المصلحة للمعلن الذى يرى إلى رواج أعماله وللتاجر الذى يبغى التوسع فى تجارته .

وقد راعت المصلحة أن تكون أجور النشر فى هذه الرسائل زهيدة وفى متناول الجمهور فجعلت كل مائة ألف إعلان بثلاثين جنيها مصرياً وكل ربع مليون بسبعين جنيها وكل نصف مليون بمائة وعشرين جنيها فضلا عن تخفيض معين فى المائة إذا بلغ المراد نشره مليونا أو أكثر من الاعلانات .

انتهزوا هذه الفرصة ولا يفوتكم أن تحجزوا من الآن القدر اللازم لكم من هذه الرسائل .

ولزيادة الاستعلام اتصلوا — بقسم النشر والاعلانات

بالادارة العامة — بمحطة مصر

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)